حديث الشهر

مع مؤلف قصة سارة

الكاتب الكبير عباس محمود العقاد

يقدمه محمد عبد الحليم عبد الله

كنت اعد درجات السلم وانا اصعد الى شقة الكاتب الكبير فى صباح ذلك اليوم ٠٠ وكان ذلك بطريقة تلقائية ٠٠٠ وجدتنى اعد الدرجات ٠ فهل كان ذلك ترجمة غامضة لقياس مدى الرقعة التى وصل اليها ٠

ان العقاد يصعد السلم باستمرار ٠ المؤدى الى المكتبة والمؤدى الى المعرفة ٠٠ وعندما وصلت الى باب شقته وجدتنى اقول قبل أن امد يدى لأدق الجرس ٠ « خمس وثلاثون درجة » ٠ وابتسمت وأردفت فى سرى :

« وسبعون كتابا ٠٠٠ كل درجة من درجات هذا السلم الرخامى القديم الذى طالما صعده العقاد يقابلها كتابان من تأليفه ٠٠٠ كل ميسر لما خلق له » ٠

وكان الوقت صباحا وحوله عدد كبير من تلاميذه ٠ وعندما نهض العقاد ليسلم على رشاشة قال لى بدعابة وقور تخالطها ضحكته التى تعرف بين ملايين ضحكة

ـ واحساس بالبرد ياعبد الحليم ؟ ٠٠٠ وبالطر ؟ ٠٠٠ انها الشيخوخة ٠٠ فقلت وأنا اخلع المعطف واجلس على كرسى قريب منه ـ

ـ هل تظنون ان كل الناس لايشيخون مثلكم ٠٠٠ ان العباقرة لايشيخون ٠٠ فقال وكأنما يردنى الى صوابى ٠

ـ ألا ترى الشيخوخة فى كل هذا ؟ !

فقلت

ـ انى لم أشهد شيخوخة على عبقرى قط ٠ ان الذين يمنحون متعة النفس والوجدان والعقل لا يموتون ٠٠٠ فكيف يشيخون ؟ !

فاطرق لوهلة مفكرا فيما سمعه وهو يضغط كفه الكبيرتين واسندأ الحاضرون

يعلقون على الحديث ويسألون اسئلة شتى في الفكر والفن والادب لكنني كنت أشعر انني دائب على بضعة آلاف وان هؤلاء الحاضرين سيسألون من متعة الحديث نفس القسط الذي سألته فقطعت عليهم أسئلتهم وقلت للعقاد ٠

ـ ان أسرة مجلة القصة حملتني التحية اليكم ٠ وقراء مجلة القصة سيستمتعون بحديثكم على صفحاتها وربما سيكتبه قلمكم خاصا لها ٠ وانني أؤدي الأمانة اذ أحمل اليكم هذه الكلمات ٠

فقال العقاد :

ـ أجمل تحياتي لمجلة القصة فقد ظهرت في أوانها ٠ والحمد لله على أنها ظهرت وحياتنا الأدبية في حاجة الى الرسالة التي ستؤديها باذن الله ٠

وبعد ذلك توجهت بالسؤال الاول الى الكاتب الكبير ٠ قلت :

ـ قرأت أنا وأبناء جيل قصة (سارة) ونحن شبان ٠ فهل يعرف قراء (القصة) شيئا عن الارهاصات التي سبقت كتابتها وبعض ذكريات عنها ؟

فرد العقاد وكأنه كان على علم بالسؤال قبل أن يلقى :

ـ وربما كان كثير من القراء لا يعلمون أنني ما كنت أحب أن أكتب قصة (سارة) أو بالاحرى ما كنت على استعداد نفسي لأن أكتب قصة من القصص ٠ لكن حدث أن طلبت الى مجلة (الدنيا) التي كانت تابعة لدار الهلال في ذلك الوقت ـ طلبت مني أن أكتب بعض ذكرياتي العاطفية فأرسلت اليها مقالين أو ثلاثة من هذا النوع ٠ وعندئذ وجدت الفصول الاولى من قصة (سارة) طريقها الى الظهور في مجلة الدنيا ٠ واستمر النشر حتى حدث ما لم يكن في حسابي وعددته شيئا غريبا ٠٠٠ ذلك أنني أحسست بعد نشر جزء من القصة أن المجلة لا ترحب بنشر الباقي منها ٠ وكان حجة القائمين على المجلة في ذلك الوقت أن لغة القصة لا تشوق القراء أو لعلها لا تجتذب العدد المطلوب منهم ٠ فما كان مني الا أن توقفت عن نشر بقية الفصول ٠٠٠

فسألته وكأنني لا أصدق :

ـ توقفت ؟

فقال :

ـ نعم ٠ توقفت ٠ ولعل هذا يشير الى حظ الصحافة من المعرفة ٠ أقصد حظها من المعرفة لفن القصة وفن الشعر ٠ فالصحافة تزعم أنها في هذا خير حكم لأنها هي التي تواجه الجمهور وتعامله لكن تجربتي مع الصحافة في الشعر والقصة دلت على أنهم آخر من يعرفون ميول الجمهور ٠

وسكت العقاد ليعود الى ذكريات (سارة) ثم استطرد :

ـ لكن العلاقة بسارة تجددت بعد ذلك ٠ ودعيت لاستئناف العمل في جريدة

البلاغ . وطلب مني المرحوم عبد القادر حمزة عدة مقالات فلما أحسرته أن عندي قصة لا تزال في (دور الوقوع الصبي والعاطفي) ولا أحب أن أتركها معلقة دون ان أتمها رحب بالفكرة ، لكنه كان لابد لي من مهلة لأصل الحاضر بالماضي ولأكتب فاستمهلته شهرين وكتبت القصة التي نشرت تباعا على صفحات البلاغ .

لكن الذي حدث حقيقة أن النقاد قابلوها بجفاف مع أنها من القصص التي أحبها القراء وأعيدت طباعتها عشر مرات .

ـ قلت للعقاد .

ـ وقبل أن نترك هذا السؤال الى السؤال التالي أحب ان أقول : أنكم من أعلامنا الذين شاركوا في النقلة الكبرى التي وصل اليها الأدب العربي في أوائل هذا القرن ، وقد كتبتم في (انواع) أدبية مختلفة لكن (النوع القصصي) ليس لكم فيه الا قصة (حارة) فلماذا ؟

فأجاب العقاد بعبارات كانت قسمة بين الكبر والحنان . قال :

ـ أنا بطبيعتي لست ميالا للاعتراف أو التصريح . وحتى في الشعر وهو المتنفس الطبيعي للشكوى او الاعتراف . فما بالك بالقصة ؟ !

وضحك وعاد يؤكد :

ـ أنا لا أحب البوح .. على رأي المرحوم الدكتور منصور فهمي .

ثم انتقلنا الى السؤال التالي . قلت :

ـ تكلم عن شكسبير ، وان حياة مؤلف المحاكم كانت حالية من المحاكم ، فلو فرضنا أن حياتكم خلت من الحب ـ وهذا في رأيي محال ـ فهل يأتف كاتب (العقريات) من كتابة قصة حب ؟

فأجاب في تودد :

ـ لست آنف على الاطلاق . بل ان موضوعات الحب في القصة موضوعات مشروعة .

فعدت أسأله :

ـ لماذا اذن ؟ !

فأجاب :

ـ السبب الحقيقي لا يرجع الى الانف ولكن ربما كان السبب هو أني أعطيت هذه العاطفة للشعر وأعطيتها حقها في الشعر . فقد منحت الشعر عاطفة الحب وعبرت بالشعر عن عاطفة الحب فارضيت العاطفة وارضيت الشعر .. ولم يبق شيء للقصة .

ـ وفي هذه الايام .. الا يمكن ان يكون للقصة عندكم نصيب من العاطفة والوقت ؟

ـ سأكتب عن موضوعات عن حياتي . ربما كانت شخصيته عاطفيه قريبه من السرد القصصي . ومن الممكن أن يكون لمجلة القصة نصيب في نشر هذه الموضوعات.

ثم لنعد الى موضوع الحب الذي قلت لك عنه انني لا آنف أن أصوره في قصة ... انه في رأيي امتزاج بين شخصين . ومن التقصير أن تنصرف كلمة حب الى ما يكون بين الرجل والمرأة فقط .

ولكي يوجد الحب لابد ان تكون هناك مرآة شخصية للانسان الذي نحبه والا فما الذي يجعلنا نميز واحدة عن واحدة ؟ !

والحب في كل سن أساسه التكافؤ . والشاب والشابة في حبهما يشعران بأنهما يمتحان لا يأخذان . يشعران أن كلا منهما يضيف الى الآخر شيئا . فحب الشباب عملية (جمع) لا عملية كيماوية فحسب . لكن مع تقدم السن لابد أن يكون هناك نوع من الامتزاج الشخصية يقوم بعملية التكميل . تقدم السن يتطلب الزيادة.. يتطلب التكملة ... في حب سارة قلت :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى
وارتاد فيـــك اللهـو بعد التعبد
فالقاك جســـما مستباحا وظـالما
لقيتك جـــم العرف جم التردد
اذا لم يكن بد من الكاس والطـلا
ففي غير بيت كان بالأمس مسجدي

وبعد سارة قلت فيمن سميتها (سرى) :

لا تخدعيني يا بنية بالرقـــ
ـــــاء من اللســـــــان
حبـــا وخلت ولا أقـــو
ل ســـــل فلانة او فلان
ذهبت حبـــــاتنا معـــا
والآن نحـــن الباقيـــان

وهذا يظهر الفرق بين حب الشيوخ وحب الشباب . فحب الشيوخ نوع من التكميل وفي « سارة » أنواع من الشخصيات . ففي فصل (حنان) من القصة : حب لشخصية يومها يوم (جمعة الآلام) وشخصية يومها يوم (شم النسيم) . فلن يجتمع حنان من نوع واحد في قلب واحد ...

قلت للكاتب الكبير مداعبا

ـ حتى ولو في قلب عبقري ؟

فقال :

ـ حتى ولو في قلب عبقري .

فسألته :

ـ وعلى ذكر العبقري والعبقريات . يقول بعضهم عن (العبقريات) التي ألفتموها انها ادب مترفع يتنافى مع الدعوة ان يكون الأدب في خدمة الشعب . فما رأيكم في هذا ؟

عندئذ لمحت على وجه العقاد علامات حد طارىء فوق حده الفطري . وأجابني وهو يشير بسبابته يد كتيبة (العبقريات) :

ـ ادب مترفع ؟ ! ... ادب لا يخدم الشعب ؟ ! ... بالعكس .. لا يخدم الشعب من يفرض فيه الجهل الأبدي . ويفترض أنه سيظل جاهلا بعد أن يكتب له كفى خدمة للشعب أن تقدم له المثل الذي اذا ادركه ارتقى علما وثقافة . واذا نظرنا الى موضوع العبقريات في ذاته وجدنا ان كتابته والتعبير عن آلامه وآماله لايمكن الا بمثل هذا الاسلوب الذي كتبت به . فالعبقري ... ممتاز بطبيعته . والتعبير عن الممتاز يتطلب امتيازا . ولن يكون مثل أية صورة من الصور الشائعة . ومن حق الشعب ان يتمكن من ادراك القيم الممتازة في العباقرة معاصرين وغير معاصرين . ويجب ادراك الفرق بين شخصية العبقري وأي شخصية عادية مكررة . ان تصوير الشخصيات العادية لا يلبث أن ينسى ولا غناء فيه للنفس ولا للروح وليس مصدرا للاعطاء ولا منارا للهداية . فهل يجوز أن يحرم الشعب من المنارات ؟ ! ..

قلت للعقاد وأنا أبتسم :

ـ لقد اقتنعت .

فأجاب بنفس الحد :

ـ عال .

ـ فألقيت بالسؤال التالي :

ـ المدارس الادبية تصل الينا تباعا من الغرب نتيجة النضج الفكري والادبي . فلماذا لم نولد مدرسة أدبية عربية حتى الآن لامحلية ولا عالمية ؟

ـ فأجاب العقاد بهدوء ونصوت طالع الحصوت والثقة والطمأنينة :

ـ عندنا مدارس ..

فعدت أسأل :

ـ كيف .. ؟ هل نشأت في وطننا مثلا المدرسة الرومانسية أو الواقعية ؟

فقال الكاتب الكبير بنفس الصوت الحافت والثقة والطمأنينة :

ـ المدارس الأوربية كلها ممثلة في أدبنا الآن في الشعراء والكتاب والقصاصين .

فالمدرسة الاجتماعية التاريخية يمثلها الدكتور طه حسين وأحمد أمين . والمدرسة السيكلوجية كانت أحب المدارس الى نفسي .

فقاطعته قائلا :

ـ ولعل هذا هو السبب الذي جعلك تمثلها ـ فالعبقريات تطبيق أدبي للمدرسة (النفسية) .

ثم استطرد العقاد :

ـ وعندما المدرسة النفسية . ثم ضحك قائلا : وحتى مدرسة اللا معقول عندنا منها نماذج . « يا طالع الشجرة » لتوفيق الحكيم . ان الحكيم اجتهد أن تكون مسرحيته الجديدة من مدرسة اللامعقول . والحكيم يعتبرها من هذه المدرسة ولكني أخالفه في هذا الرأي فلا أعتبرها من (اللامعقول) .

ولا تنس انه قد يوجد في عصر واحد من يمثل عدة مدارس . فأبو تمام والبحتري دواوين الرومي شعراء ثلاثة . يمثل أولهم (أبو تمام) الغنية الفكرية . ويمثل البحتري الغنية العاطفية ويمثل ابن الرومي الغنية السيكلوجية .

ونحن قد سبقنا الأوربيين في الأنواع الأدبية باستثناء الملاحم والدراما . وقد وضعت في الأدب العربي قواعد البلاغة قبل أن توجد في أوربا اذا استثنينا ما كتبه ارسطو عن الخطابة والشعر .

فعلقت للعقاد :

ـ ربما كان سؤالي غير واضح . لماذا مثلا لم تهاجر مدرسة اللامعقول من هنا بدلا من وجودها من هناك ؟

فقال :

ـ المسألة مسألة أسماء . نحن قد وجد عندنا المسمى دون الاسم .. أقصد في أدبنا . والأدب الانجليزي فيه مسميات دون أسماء .. فيه مدارس أدبية أتت أسماؤها من فرنسا . فلم يقل الانجليز عن ديكنز أنه من المدرسة الواقعية . بل عندهم ديكنز وأدب ديكنز وامثال أخرى من أدبه ثم .. جاء الاسم من الخارج .

والأدب الفرنسي هو السباق دائما لمثل هذه التسميات . فهو يسارع لوضع اسم لأي ابتكار أدبي حتى قبل أن يشيع .

وهكذا ترى أن الذي حدث في أدبهم حدث في أدبنا . في الشعر والقصة والنثر والذي لاشك فيه أن للمويلحي نثرا وللمنفلوطي نثرا وللرافعي نثرا ـ هذه كلها مدارس أدبية بلا أسماء . وشعر شوقي شيء وشعر حافظ شيء ...

فأكملت أنا :

ـ وشعر العقاد شيء آخر .

فقال :

ـ هؤلاء جميعا ليسوا لونا واحدا . ونحن لم نتعود أن نسميهم بأسماء مدارس ولو أردنا لأمكننا .

غير أني أحب أن أؤكد أن المدارس الأدبية تولد بلا أسماء وقد تبقى في بعض

البلاد بلا اسماء وقد تحمل اسما ما في بلد آخر ٠

واتجه الى العقاد وسألني بابتسام ٠

ـ يكفيك هذا ٠٠

قلت نعم لكن ٠٠٠

ـ ما رايكم في الدعوة ان يكون الادب للشعب ٠ ثم الدعاية لمدرسة اللامعقول٠ هل ترون في هذا تناقضا ؟

ـ يجب اولا ان نحدد مدلول كلمة (الشعب) هذا الذي نكتب له الأدب ٠

كانت كلمة (الشعب) قديما في أوربا تعني الطبقة الأخرى غير طبقة النبلاء ٠ فقد كان هناك رعايا ونبلاء ٠ لكن ما معنى كلمة الشعب في هذا العصر ؟ ان قولنا الادب للشعب قد يوهم بان هناك نبلاء ٠ وحقيقة الامر ان هذه الطبقة ليس لها عندنا وجود ٠ فهل يقصدون اذن ان يقولوا : غير المتعلمين ٠ اذا كان هذا هو مقصودهم فيحتم ان يكون المتعلمون من غير الشعب ٠

لقد قلت هذا في المجلس الأعلى للفنون للدكتور طه حسين ٠ طه حسين من الشعب ٠ وأنا من الشعب ولست من الدم الأزرق ٠

والآن بعد أن حددنا مدلول كلمة الشعب واتفقنا على أنها كلمة تصدق على المتعلم وغير المتعلم هنا ٠٠٠ ننتقل الى الكلام عن اللامعقول ٠

كل مدرسة أدبية جديدة ليست الا نزعة جديدة للتطور ٠٠٠ هي نمو للقديم وتحسين فيه ٠

ويجب ان ندرك الفرق بين المدرسة والبدعة (الموضة) فالبدعة او الموضة تغيير ليس الا ٠ تغيير لمجرد التغيير الذي قد يكون نتيجة الملل ٠ أما (المدرسة) فنمو وتطور واضافة ٠ ونحن نحتاجون الى كل شيء يعبر عن الانسان حتى مدرسة اللامعقول لأنها ايضا تعبر عن الانسان ٠

ولكن اذا سألتني عن المدرسة الأدبية التي افضلها فانني اقول : انها المدرسة (النفسية) لأنها ترد كل شيء الى الانسان اذ ترد كل شيء الى علم النفس ٠ ونحن لا نستطيع ان نفهم اديبا أو عالما أو فقيها الا اذا فهمناه (نفسيا) هذا هو مفتاح الادراك في رأيي ٠

واذكر ان عالما من علماء المدينة المنورة سألني ٠

٠ ابن تيمية الحنبلي وابن حزم الظاهري على طرفي نقيض في المرجعة لكنما مع ذلك نرى أن ابن تيمية يذهب الى التكتيم والتشبيه وابن حزم يشتد في انكار التاويل فلماذا ؟

فأجبته ٠ ابن حزم ينكر التاويل وهو فيلسوف لأنه أموي وهو ضد (الباطنية) اذن هو ضد التاويل وابن تيمية كان في عصر محاربة (الباطنية) لذلك اتفقوا في هذا مع اختلافهم في المرجع ٠

ثم قال لي العقاد ٠ لذلك فانا أفضل المدرسة (النفسية) في الأدب ٠ وهذا الحديث يعني بنا مرة أخرى الى العقريات ٠

ثم قلت للكاتب الكبير :

ـ مضى خمسون عاما على كتابة أول قصة مصرية وهى (زينب) فكيف تتصورون القصة العربية بعد خمسين عاما أخرى ؟

فقال العقاد ببطء كأنما ليتيح لى فرصة أن أكتب ما يقول كلمة كلمة :

ـ (زينب) عمل أديب أراد أن يوجد القصة فى الأدب العربى وليست وليدة احساس تفاعل ولا حاجة ملحة عليه ، أراد كاتبها أن يقول شيئا ، خلق عندنا قصة ، فهى عمل القصد لا عمل الطبع . أما القصة الآن فى أدبنا فهى عمل (الطبع) . قصة « زينب » ، (مشق) ، (أنموذج) ، (موديل) . لكن القصة الآن قد تنوعت موضوعاتها وكثرت .

عندنا القصة الطويلة والقصة القصيرة والموضوعات ذات الالتفات الاجتماعى والفكرى .

وعندنا فى مصر من نقرأ رواياته فلا نجده ملتفتا الا للطبع وداخل النفس . وعندنا من نقرأ رواياته فنجده ملتفتا الى الطبع والطبيعة معا .. والقصد بالطبيعة المناظر الطبيعية فهى تؤدى فى عمله غرضا .

وفن القصة عندنا الآن خصوصا الطويلة لا يقل عن نظائرها فى أوربا وأمريكا وانجلترا نعم عندنا مثلهم ومن يفوقهم . وستطيع أن تترجم روايات مصرية عربية ونحن مطمئنون لكنك تعرف ما هى العوائق التى تقف فى بعض البلاد الخارجة فى وجه الأديب العربى .

قلت للعقاد :

ـ نعم ـ فقد قرأت اليوم ما كتبه أنيس منصور عن اعلام أدبنا وحائزة نوبل وهذه قصة مشهورة .

فأجاب العقاد بلا مبالاة :

ـ لكن . يكفى الأديب العربى أنه قد وصل الى هذه القمة .

فسألته فى حرج :

ـ عندى سؤال شخصى ؟

ـ تفضل ..

ـ هو فى الحقيقة ليس شخصيا محضا وان كان متصلا بشخصكم .

فعاد العقاد يقول :

ـ تفضل .

قلت :

ـ يعيش الناس على انتاجك كمصدر للتفكير . وتعيش أنت على انتاجك . فلست موظفا ولا صاحب أملاك ، فكيف ...

ولم يدعنى العقاد أكمل السؤال ورد قائلا :

ـ حياتى من قلمى أول شىء من نوعه . هى ليست مريحة تماما لانها أول (اقتحام) فله لذاته وله متاعبه ومخاطره . لكننى أرجو من الآن فصاعدا أن تكون مثل هذه الحياة أكثر سهولة .

جيلنا اول جيل عرف قيمته كاديب بمعزل عن الالقاب الاخرى . فلم يكتسب لقب اديب من وظيفته ولا من جاهه . بعكس الجيل الذى سبقنا مثل الياروردى وشوقى .

وانا .. انا والحمد لله هو الذى طلع بمعزل عن الالقاب كلها . حتى شكرى والمازنى كان عندهم القاب علمية . لكن ... انا كنت بخلاف هؤلاء جميعا . وهذا هو السبب فى اننى قلت لك ! ان حياتى نوع من (الاقتحام) طريق لم يكن ميسرا من قبل لكن فيه لذة الاكتشاف . بلا ادنى شك .

قلت وله ايضا شرف المكتشفين .

ثم اعدت سؤالى الاخير

ـ على اتم مع من يقول ان هناك ازمة فى النقد او مع من يقول بل المسألة مسألة حساسية من الكتاب ؟

ـ نقد الادبى فى ازمة اذا نظرنا الى النقاد الذين فرضوا انفسهم على وظيفة النقد . والدليل الوحيد على انهم ليسوا بنقاد انهم ليسوا تشجيعيين . الناقد مشجع لا عالة على انتاج الغير . وما من ناقد عظيم الا وله آثار انتجها هو نفسه فى الطبقة العليا من الانتاج . ازمة النقد حقيقية لانهم غير مشجعين . وعندنا من المشجعين من يؤدون وظيفة النقد خير اداء . مثل طه حسين ومحمود تيمور وتوفيق الحكيم وان كان نقده خارجا عن نطاق انتاج الغير لتحرجه وحرصه على عدم جرح احساس احد . واضف اليهم كل مشجع فى حياتنا الادبية بلا استثناء .

وكتابة القصة نقد . فكاتب القصة ناقد اجتماعى . فكل ناقد فى كل نوع لابد ان يكون مشجعا أولا وقبل كل شىء وليس فى اوربا فئة مثل هذه . بل النقاد هناك مشجعون قبل ان يكونوا نقادا .

ربما كان فى المسرح فى اوربا نقاد بلا انتاج . وحتى هؤلاء هم هناك من النوع الذى يفرض نفسه قسرا على الحياة الفنية . مما نكتبه من نقد مسرحى وهو نوع من (البلطجة) اما فى الادب فلا ...

كان العدد حولنا يتزايد ونحن نتكلم . كان هناك ثلاثون من الحاضرين يسمعون هذا الحديث . وكان الزمن يمر ... يمر فى سرعة لم احسها . وشعرت أن أديبنا الكبير على استعداد لأن يتحدث حتى المساء . كان فى حماسه يؤدى عملا مقدسا يحبه وهو يتحه بكلامه للجميع لكنى فى حقيقة الأمر ذكرت ما يقولونه دائما « الفرد احمد » ...

كان باب المكتبة المفتوح يقع تجاه نظرى عبر الصالة وكان هناك من يعيد بعض الكتب الى اماكنها من الرفوف حتى يناديها صاحبها ذات يوم أو ليلة ...

وتركت الحديث لغيرى قليلا قبل ان استأذن ثم خرجت من منزل العقاد .

رأيتنى احد السلم مرة أخرى .. وعدته خمسا وثلاثين درجة .

وعندما وصلت الى الأشجار المتواضعة التى تظل عليها نافذة العقاد ذكرت عدد مؤلفاته ... ستين ...

فقلت فى نفسى « ستون كتابا ؟ » وليس تحت نافذته شجرة واحدة تحمل ازهارا ؟ .